الثقافة الشعبية قادرة على تحرير الفكر من جديّته وفتح آفاقه على عوالم جديدة

فلسفة البوب.. أسلوب تفكير يتجاوز الأشكال التقليدية إلى الغوص في تفاصيل الحياة اليومية

تلاقي مؤلفات ما يعرف بالفلسفة الشعبية اهتماما متزايدا من القراء، في الغـرب. وتزداد أعداد الكتب المؤلفة عن هذا الموضوع، الذي ما زال بعيداً عن اهتمامات الكتاب والمترجمين والقراء العرب، رغم أنهم، شـأنهم شأن غيرهم من البشـر، معنيين بهذه العلوم، التي تعنـى بكل تفاصيل الحياة المعاصرة. وهي تنطلق من أسئلة تتعلق بالحياة اليومية قد تبدو بسيطة في ظاهرها لكنها في عمقها إجابة تسـاعد على تحديد وعينا وطريقة إدراكنا للعالم.

عمار المأمون
كاتب سوري

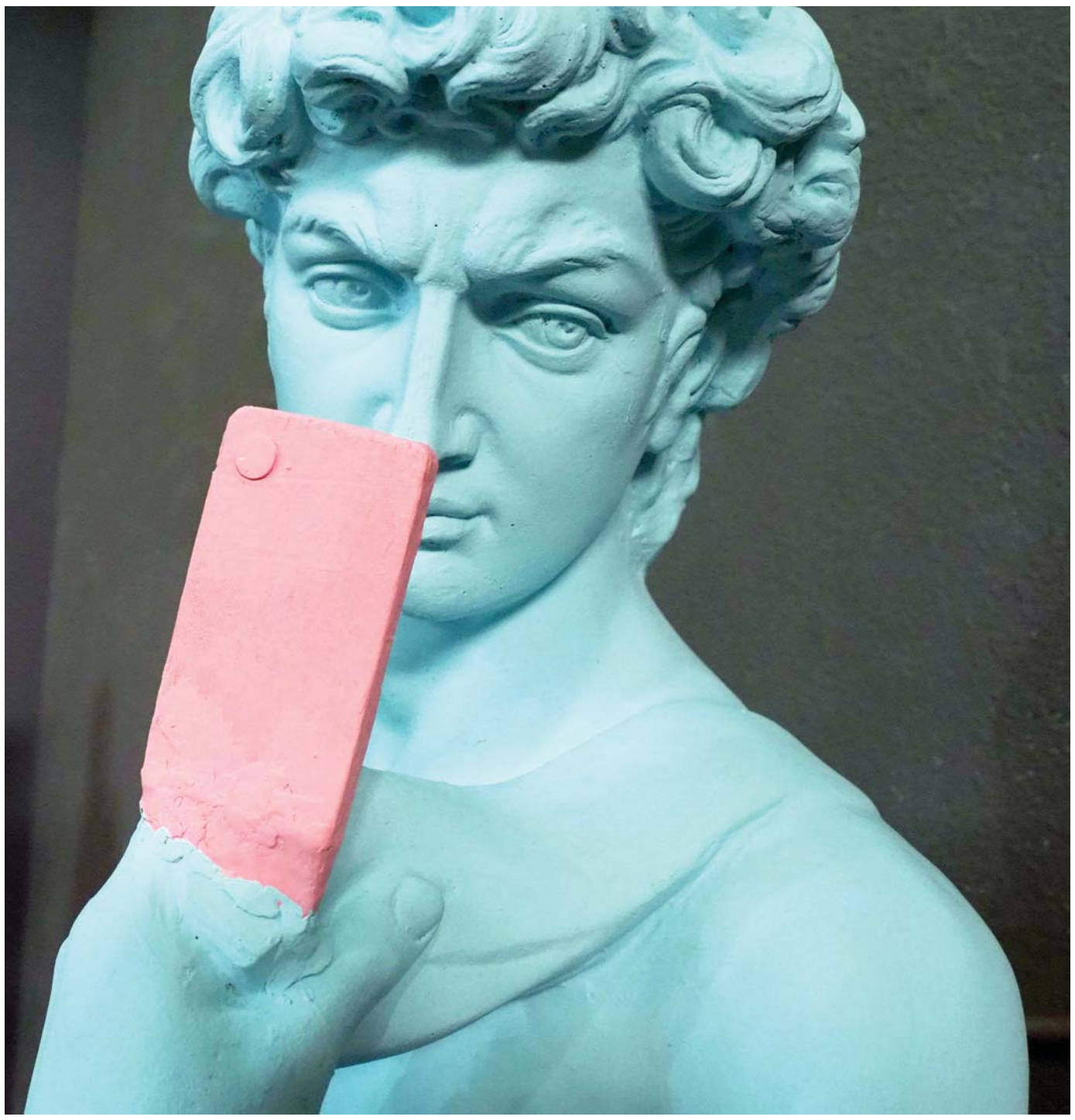

فلسفة العصر الراهن

باريس – امتلك الفيلسـوف الفرنسـي جيل دولـوز حلما بتأليـف كتاب يلامس الجميـع، مختصين وغيـر مختصين، ذو أثـر كأغنيـة أو فيلم، وجـاء كتابه "ضد أوديـب" الصادر عام 1972 تحقيقا لنصف هـذا الحلـم، وقدم فيـه مفهوم الفلسـفة الشعبية أو "فلسفة البوب"، (يطلق عليها أيضـا مصطلح البوب-فلسـفة) بوصفها وسـيلة لتحرير الفلسفة من جديتها ومن شـرطتها "العلميّة"، بحيث يكون الكتاب بوابة لتجارب أخرى تتناول الموضوعات وتكتشـفها و"تجرب" ضمنها دون فرض سطوة عليها.

جيل دولوز يرى أن الحدّ الوحيد بوجه فلسفة البوب هو التسويق وتقنياته التي تُسطّح العالم وتجعله استهلاكيا

ولابـد من الإشـارة إلى أن التسـمية الفرنسـية لمصطلـح فلسـفة البـوب pop'philosophie يحوي فاصلة، ما يجعله مختلفا عن الفلسـفة التي تتناول الثقافة الشـعبيّة، فالفاصلـة هنـا تقترح شـكلا جديدا للفلسـفة، لا اسـتخدام الفلسـفة، وكأن الفاصلـة هـذه عتبة نحـو إخراج الفلسـفة مـن "صندوقها" نحـو تفرعات الخـارج اللامتناهيّـة، تلـك المحكومـة بالشاشـات والسـخرية والهوامش التي نختبرها دون أن نقرأ عنها بجديّة.

مفاهيم جديدة

تتنـاول هـذه الفلسـفة الجديـدة أو أسـلوب القـراءة/ الكتابة "اللاشـيء" وتحولـه إلـى "شـيء مـا". وبالرغم من غمـوض التعريفـات اكتسـبت "فلسـفة البوب" صـورة أوضح مـع بداية الألفية الثالثة حيث فقد العالم "جدّيته"، وطرحت مفاهيم جديدة غيّرت شرط الحياة بالتالي أدوات الفلسفة ذاتها.

تتطلب ممارسة فلسفة البوب الخروج مـن "الصندوق"، هـي أسـلوب ونظريّة للقـراءة والكتابـة. وتسـعى لاكتشـاف مـا هو خـارج "الصندوق" عبـر تكثيفه، وتوليـد مفاهيـم جديدة. هـذا الصندوق هـو الأسـلوب الجـديّ الفلسـفيّ الذي تُنتجه مؤسسـات "المعرفة" و"الحكمة" و"الجامعـة" التـي تسـتخدم الفلسـفة كأسـلوب للترهيـب وفـرض السـطوة، أشبه بشـرطة معرفية تدافع عن تقاليدها وقوانينها، لتأتي ثقافة البوب وفلسفتها لتحرير الفلسفة من قيودها، دون الالتزام بمهارات خاصة لقراءة "الفلسفة" ليصبح النصّ وسيلة وعربة لاكتشاف "أي شيء" وتحويله إلى موضوع للدراسـة وماكينة للمفاهيم.

نلتمـس ملامـح هـذا الأسـلوب في بعـض نصوص رولان بـارت، الذي جعل السـيميولجيا وسيلة لتوليد قراءة العالم ورصـد مفاهيمه، كما فعـل حين كتب عن المصارعـة الحـرّة والأسـاليب القتالية والاسـتعراضيّة فيها، أو حيـن كتب عن مسـحوق الغسـيل "أومو" بوصفه الحد بين "النظيف" و"الوسـخ" أمـا حُبيباته فهـم عمـلاء الطهرانيّـة، الذين رسـموا لنـا مُتخيّلا عن الوسـخ الـذي لا بدّ من "إذابته".

عربة نحو الخارج

فلسـفة البوب أسـلوب لخلق الأفكار والأدوات. لكنها بداية أسلوب "اللاشيء" أي لا تسـعى للترهيب، لكنها تشـير إلى فـروع مـن الموجـودات، يمكـن التقاط خصائصها ضمن عالم ميدياتيكي، لتوليد مفاهيم تتحرك بين الثقافة الشعبيّة وبين التفكير الفلسـفي، أما أسـلوبها فيرفض سـلطة "المنطـق" و"المعرفة" كوسـيلة لمحاكمـة كل ما هو مضبـوط بالقواعد، وهـادف. هـي عربة لاكتشـاف خـارج لا متناه تمشي ضمنه الفلسـفة كالكهرباء، ما يجعل كل مفهوم أشـبه بقابس، تشغله الكهرباء/الفلسـفة بصـورة لا علاقة لها بالتيار ولا بمصدره، وهـذا ما نراه مثلا في مفاهيم السـايبروغ والأندرويد، التي بدأت من أفـلام الخيال العلمي، وتحولت إلـى مفهوم فلسـفي يحاول خلـق بديل للعالـم ولـ"المعرفـة" على أسـاس الآلة بوصفها جزءا حيويا من حياتنا.

هذا المفهوم وتفرعاته يسائل إدراكنا لذاتنا وشـكلنا البشري المثالي ذاك الذي تدافع عنه الفلسـفة التقليديّة، ذات الأمر حين نقرأ عن مصاصي الدماء والزومبي، هـذه التمثيلات التي تنتمي إلى اللاجدي والفكاهـي تحولـت إلى أدوات فلسـفيّة و"فـروع" تنتمـي للخـارج المنفـي من الصنـدوق، فهل ينجب مصـاص الدماء طفـلا؟، وهل انعكاسـه الغائب في المرآة ينتمي لعالم آخر لا ندركه؟

غرابة الأسلوب

الأهم أن هـذه المفاهيـم "الجديدة"، والتـي تحدث "خارجا"، تحـاول التأكيد للقـارئ مهمـا كان نوعـه بأن هنـاك ما يحـدث في الخارج ذو قيمة، وليس مجرد حدث عابر. وهنا يأتي الأسـلوب، بوصفه تكثيفا للعالم الخارجـيّ ضمن واحد من الفروع، فكل الأشكال الجدّية وغير الجديّة يمكن الاقتباس منها، لا بهدف تقعيدها بل لتفريع أسلوبها في مساحات أخرى.

وهـذا مـا نراه فـي دراسـات ألعاب الفيديو التي أنتجـت مفاهيم "اللوعبة-Gamification"، التـي تقـدم لغة ومفاهيم يمكن قـراءة جوانـب الحيـاة المختلفة ضمنها سواء كنا نتحدث عن "الوعي" أو أسلوب استدلالنا على المكان عبر الجي. بي. أس. وهنا يأتي الأسلوب الذي يجعل الكاتب/الفيلسوف يستخدم لغته وكأنها "لغة أجنبيّة"، لا تنطبق تقاليدها على "المفهوم" الذي يتناوله. وهذا ما نراه في بعض المقالات في العالم العربي التي تتناول موسيقى "المهرجانات" لا للتقليل من قيمتها أو تحقيرها بل لفهم العالم عبرها، لتكون المهرجانات مفهوما قادرا على أخذنا إلى مساحات لا تنتمي لا للنص ولا إلى المهرجان بل إلى عوالم سريّة لا تتناولها الفلسفة والنصوص المتداولة. التقعيد الذي تمارسه الفلسفة تجاه موضوعاتها هو عدو فلسفة البوب، التي يمكن وصفها بأنها في تغير دائم ضمن تاريخ الفلسـفة ولا حدود لها، صحيح أنهـا غير واضحـة، لكنها تظهر عبر ما يُنفى من "الرسمي" كحالة ثيودور أدورنـو مثلا واحتقاره لموسـيقى الجاز بوصفهـا فنا منحطا، لكنهـا لاحقا قدّمت لنـا مفهـوم "الكول-cool" لا فقط كشـكل موسـيقيّ بل كنمـط حياة، يتحـرك بين الأزياء والسلوك، بين حكم القيمة والشكل الاسـتعراضيّ، لتتحـول الكتابة هنا إلى مسـاحة لزعزعة الكـون وإعـادة ترتيب عناصره.

مفاهيم، كالسايبروغ والأندرويد، بدأت من أفلام الخيال العلمي وتحوّلت إلى مفهوم فلسفي يحاول خلق بديل للعالم ولـ«المعرفة» على أساس الآلة بوصفها جزءا حيويا من حياتنا

وهذا ما تسـعى لـه فلسـفة البوب، تقديـم مفاهيـم قـادرة علـى تحريـر الفلسـفة من سـطوتها التاريخية أسيرة الجدّية و"الصحة" والصـواب، وجعلها تقتبس من مسـاحات أخـرى كحالة فيلم "ماتريكس" الذي يشـبه ماكينة للعلامات والمفاهيم، قادرة على طرح أسئلة على وعينا وأسلوب إدراكنا للعالم، فهل فعلا كلنا أسرى الآلات، وهل ما نتذوقه هو الحقيقة أم انطباع عنها.

الفلسـفة التقليدية تمتلك أجوبتهـا الجاهزة، لكن فلسـفة البوب تفتـح الباب نحـو مفاهيم أوسـع، كأن نسأل، كيف يمكن أن يتذوق رجل يمتلك ماكينة تشبه الفم؟ هذه الأسـئلة على سـذاجتها تتطلب بحثـا في الأسـلوب وتعريفات جديدة لا تنتمي للمتداول عن مفاهيم التذوق والفم والأشـياء، وهي ما يجيب عنها بشكل ما فيلـم "ماتريكس" نفسـه، فـي واحد من المشـاهد، التي يسـأل فيها أحدهم كيف لنـا أن نتيقن مـن طعم الدجـاج إن كان مجرد سـيالة كهربائية في رؤوسـنا، ألا يمكـن أن يكون بـلا طعم والأمـر مجرد خدعـة من قبل الآلات، التـي هي ذاتها لا تعرف طعمه.

يـرى دولـوز أن الحـد الوحيد بوجه فلسـفة البوب هـو التسـويق وتقنياته التي تُسـطّح العالم وتجعله اسـتهلاكيا، وتقضي علـى المفاهيم. يجعل هذا الرأي فلسـفة البوب أحيانا أقرب إلى "انبلاج" وتعليب لأفكار سـطحيّة. لكن هذه الرؤية يمكـن إعادة النظـر فيها ضمـن العصر الحالي، حيث تحول التسـويق إلى شكل من أشكال الهيمنة التي تتقنع باللعب، هو يسـتفيد من معطياتنا الحيوية ووجودنا كبشر لتحويلنا إلى سلع. هو لعبة نشارك بهـا مجانـا بـل وقد نكسـب، لكـن على حسـاب منتجات أخـرى قد نحـرم منها أو تظهـر فجأة، فخصوصا أن التسـويق يحرك موقف فلسـفة البـوب القائمة على البارانويا والغواية والتكاثر والتوافر.

جعلنا التسـويق أمام عالـم نتحرك ضمنه كأغراض نشـكّ بـكل ما حولنا كي لا يكـون مجرد "إعلان" آخر يسـتهدفنا، وذات الأمر مع فلسـفة البوب التي تشكك وترتاب بـ"أيّ شـيء" وتختبـره، ليأتي فلاسفة البوب كباحثين في بارانويا هذا العالـم، لا يمتلكون أصلا ثابا بل يعملون فـي الفروع ويكثفونها. وهنا يبرز أمامنا أومبيرتـو إيكـو، بالرغـم مـن اختلاف دولـوز معـه، لكنه واحـد ممـن قاربوا فلسفة البوب، مع ذلك ما زالوا مُتمسكين بالتقليد الفلسـفي. فإيكـو يُجرب ضمن مسـاحات الثقافـة الشـعبية كنصه عن شخصية "سـوبر مان" التي تحولت إلى مفهوم جدّي، لا مُجرد شـخصية متخيلة تتحرّك على الشاشـة، ذات الأمر مع باقي الأبطـال الخارقيـن الذين يتـم التعامل معهم بذات الجديّـة التي نتعامل بها مع أوديب وهاملت.

الرغبة بالفلسفة

محـرك فلسـفة البـوب هـو غواية الأشـياء، تلك الرغبة التـي تحركنا نحو الخارج لاكتشـافه وتذوقـه دون أن نعلم ماهيته.

فلسفة البوب تفتح الباب نحو مفاهيم أوسع وأسئلة، على سذاجتها، تتطلب بحثا في الأسلوب وتعريفات جديدة، لا تنتمي إلى المتداول

هـي سـبيل الانحـلال فـي الخارج واكتشافه، أشـبه بالكهرباء التي تمضي بانتظـار قابـس كـي يعمل ويحـرك ما هو موصـول به، هي رغبـة لتلبية نداء "أيّ شـيء" يُحـدّق فينا، هـي إعلان عن نهاية زمـن انتصار الفلسـفة التقليديّة، إذ تبحـث في الهـش والخارجي والقاع، مـا هو مرفـوض ودونـيّ، يمكن تلمس معالمهـا في النقد الهذيانـي الذي قدمه سـيلفادور دالي مثـلا، ذاك الـذي يمثّل "الرغبـة" بمعـاداة المنطـق وقواعـده، كالبحث في النكات السـيئة وفي الهوس الفيتشي بوصفه أداة، لا مجرد واحد من الأعراض النفسيّة، هي المعرفة الصادرة عن صورنا العارية التي نتبادلها سـرا بوصفها بديلا عن أجسادنا.